

## آفاق المعرفة في فكر الامام بديع الزمان سعيد النورسي

د. احمد عبد الرحيم السايح \*

بداية يحسن ان ندرك ان المعرفة هي: إدراك الشيء بتفكير وتدبر. ويرى كثير من العلماء الباحثين:

- ان المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق باحوال الشيء.

- ان المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد ادراكه. فإذا أدركه قيل عرفه أو تكون لما وصف له بصفات

قامت في نفسه فإذا رآه وعلم انه الموصوف بها قيل : عرفه.

- ان المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره.

- ان المعرفة علم يعين الشيء مفصلاً عما سواه.

والمعرفة عند المحققين هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه . فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده .

بل لا يصفون بالمعرفة الا من كان عالماً بالله وبالطريق الموصل اليه. وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة.

فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله . ثم صدق الله في معاملاته ثم اخلص له في قصوره ونياته، ثم انسلخ من اخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانته ومخالفاته.

ولفظ المعرفة يطلق على مجموعة من المشكلات المعرفية، ذات الصلة الوثيقة بأفكار هي من قبيل الإدراك. التيقن .

التذكر . الاثبات. الحدس وما جرى مجرى هذا .

وهذه الأفكار هي التي نتجت عنها مذاهب ونظريات.

وقد لا يخفى على أحد الباحثين. ان مذاهب الاعتقاد والتفلسف تنطبع على نحو واضح بطابع مناهجها المعرفية التي

تعتمدها وسائل للبحث ، وصياغة الموقف..

وإذا تأملنا الفكر الغربي أعماقاً وأبعاداً وجدنا أنفسنا أمام نظريات شتى من المعرفة لا نظرية واحدة، وامام عشرات

المذاهب والمفاهيم التي تجمت من أعمال العقل والحس باعتبارهما مصدراً أساسياً في المعرفة.

ولما كان الامام بديع الزمان سعيد النورسي ظهر في فترة حرجة كانت زحوج ما يكون الى الامام سعيد لتنمية الاحساس

بالحياة والقدرة على الوصول الى كل مامن شأنه أن يرقى بالانسان. لما كان الامر - كما ذكرنا - ادرك الامام النورسي: ان

الاسلام تصور مستقل للوجود والحياة يختلف عن مناهج الغرب.

ويكاد أن يكون مؤكداً أن هناك في الفكر الغربي كما هائلا من النظريات والمفاهيم التي أنتجها العقل الاوربي وهو

عقل بشرى . مثل البراجماتية، والرومانسية، والماركسية، والوضعية المنطقية، والعلمانية، والاشتراكية، والليبرالية،

والديمقراطية، وما جرى ويجرى مثل هذا...

على انه يجدر ان نعرف ان هذه النظريات والافكار ما جاءت الا نتيجة محاولات العقل الغربي ان يشرع لنفسه منهجاً

في الحياة بعيداً عن الدين.

ولا يخفى ان التصور السائد لنظرية المعرفة في الفكر الغربي تصور قائم على ان المعرفة مصدرها: إما العقل، او

الحواس او بهما معاً.

وهذا التصور ليس وليد العصر الحديث وإنما هو وليد الفكر الوثني الالحادي الذي كان في العصور القديمة قبل ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام والذي كان قائماً على نظريتين أساسيتين هما : نظرية العقل والحس في الفكر اليوناني الهليني. ونظرية الحدس والاشراق في الفكر الغنوصي الشرقي.

ولا يزال الفكر الغربي يباهي بجذوره الفكرية والعقدية التي كانت سائدة لدى الاغريق والرومان واصبح في الفكر الغربي فلاسفة تجريبيون وواقعيون.

ويرى التجريبيون عدم وجود معرفة حقيقية تتجاوز الواقع الحسي فلاشياء موجودة في الواقع بصرف النظر عن وجود عقل يدركها. يقول جون لوك: "الافكار العقلية لا ترقى دليلاً على الوجود - وجود اي شئ - بل هي عبارة عن مجرد صور للوجود".

اما المذهب البرجماتي العملي فيرى ان المعرفة اداة للسلوك العملي وأن أي فكرة من أفكارنا هي مجرد خطة للعمل. ولقد وصل الأمر - كما يذكر الباحثون - بالتجريبيين والواقعيين والبرجماتيين الى إنكار دور العقل والى معاداة الميتافيزيقيا والغيبيات، واسبغوا على العلم التجريبي قيمة كبيرة باعتباره وسيلة المعرفة.

ويقف المثاليون العقليون على النقيض من التجريبيين الواقعيين فلا يعترفون بوجود حقيقة خارج نطاق العقل وأن المعرفة مصدرها العقل.

لقد اشتد الاتجاه العقلي في نطاق عام يشمل "مجال الطبيعة" وعالم الشهادة ومجال مارواء الطبيعة وعالم الغيب ومجال الاخلاق والقيم. كما اشتد من جهة اخرى الاتجاه المادي في الحياة العملية فكانت اللذة والمنفعة غاية السعي في الحياة. ولهذا كانت الضرورة تلح على الباحث ان يهتم بالمعرفة في فكر بديع الزمان سعيد النورسي - لا كنظرية من النظريات. كما هي عند الفارابي وابن سينا، واصحاب الفكر العقلي وانما كقضية اساسية في حياة الانسان لها آثارها في سلوكه.

"لا شك ان لهذا العالم العجيب مدبراً يدير شئونه ولهذه المملكة البديعة مالكا يراعها ولهذه المدينة الرائعة سيداً يتولى أمورها ولهذا القصر المنيف صانعاً بديعاً قد أبدعه فأرى لزاماً علينا ان نسعى لمعرفة اذ يبدو انه هو الذي قد أتى بنا إلى هاهنا وليس أحد غيره فلو لم نعرفه فمن ذا غيره يسعفنا ويغيثنا ويقضي حوائجنا" ..

فالمعرفة في فكر بديع الزمان تعتبر ثمرة من ثمرات الايمان بالله سبحانه وتعالى ونتيجة من أبر نتائج الاستقامة على الدين.

والمعرفة بالله في فكر بديع الزمان سعيد النورسي تنهض على صفاء القلب ومجاهدة النفس حتى تصل الى مرتبة من الصفاء تتيح لها ما لا تصل اليه الحواس والعقول معاً..

ولا شك أن الايمان بالله لا يكون يقينياً ولا حقيقياً ولا صادقاً إلا إذا بني وأسس على معرفة بالمعبود جل شأنه. وقد يكون واضحاً أن هناك تناسباً طردياً بين درجة العبد ودرجة معرفته لربه. فالايمن هو التصديق الذي يستقر به القلب ويطمئن ولا يعود الى التردد والجولان بحثاً عن رب يُعبد إلا انه حين يطمئن قلبه ويستقر على التوحيد ويعترف بلا إله الا الله مع عقد قلبه على انه ربه وهو له عبد يكون في نفس هذا العقد قد اسلم بهذه العبودية لربه.

وبداية المعرفة في فكر بديع الزمان تجدها في قوله: "ان التوحيد الحقيقي الذي نبحت عنه ونتحراه ليس هو معرفة قائمة على تصور فكري بل هو تصديق قائم على علم نابع من البراهين وهو ارفع من التصور كما هو في علم المنطق فالتوحيد

الحقيقي اذاً حكم وتصديق واذعان وقبول بحيث يجد المرء مالكة بكل شئ ويبصر طريقاً الى ربه الجليل في كل شئ ولا يحوله شئ عن سكينه قلبه واطمئنانه الى ربه". ٢.

"ان معرفة الله سبحانه والايان بحقائق لا اله الا الله يستلزم التصديق القلبي والايان المطلق الجازم بربوبيته سبحانه وتعالى الشاملة بكل ما في الكون وان مقاليد الامور من الذرات الى المجرات بجزئياتها وكلياتها في قبضته سبحانه، ولا تدار الا بقدرته وتحت إرادته فلا شريك له في ملكه". ٣.

اذن المعرفة في فكر بديع الزمان سعيد النورسي تنطلق من الاسلام واذا كانت المعرفة في فكر بديع الزمان تنطلق من الاسلام فاننا نستطيع ان نقول: ان مصدرها ثلاثي الابعاد: الوحي المنزل على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. والعقل الذي غرسه الله في الانسان والتجربة التي تعتمد على معطيات العلم قال تعالى في سورة النحل: والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون.

وحين نتأمل الآية القرآنية نجد ان القرآن الكريم قد حدد مراحل تفتح الادراك المعرفي لدى الانسان فالانسان يستخدم اولا قدرة السمع ثم ينتقل الى الابصار والملاحظة ثم بعد ذلك يرتقي الى مرحلة الفؤاد او العقل. ويذكر العلماء: ان ثمة مرحلتين اساسيتين في الادراك المعرفي الانساني:

المرحلة الاولى: المرحلة الحسية. وهي التي يرتبط فيها الانسان بالعالم الواقعي ليستمد منها باحساساته الموضوعات الملاحظة لينقلها الى العقل.

والمرحلة الثانية: هي المرحلة العقلية التي تتميز بتنظيم المدركات الحسية والاستنتاج منها ولا يخفى ان الامام بديع الزمان سعيد النورسي يرى اننا طالما نملك ادوات المعرفة فعلياً ان نسعى لمعرفة الله الذي اوجدنا. يقول بديع الزمان: "ان كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحققة ومظاهر اسمائه الحسنی وتجليات صفاته الجليلة". ٤.

ويقول أيضاً: "اعلم يقيناً ان اسمى غاية للخلق واعظم نتيجة للفطرة الانسانية هو الايمان بالله واعلم ان اعلى مرتبة للانسانية وافضل مقام للبشرية هو معرفة الله التي في ذلك الايمان". ٥.

ان النظرة الفاحصة فيما ذكره الامام بديع الزمان سعيد النورسي تقف بنا على تصور بديع الزمان لاعمال العقل والحس والقلب.. وان هذه الاعمال تصل بالانسان المؤمن الى معرفة الله.

ولا يخفى انه في اطار هذا التصور قامت مجهودات عديدة من مفكرين مسلمين لبيان مسألة المعرفة.

لقد اجمع مفكرو الاسلام على ان المعرفة تقوم على الحواس، والعقل، والبصيرة والوحي.. فالكندي يقول بالمعرفة الحسية والعقلية وجعل المعرفة البصيرية اعلى درجات المعرفة لانها تأتي عن طريق النبوة والوحي.

ويرى الفارابي: ان العقل هو القوة التي تميز الانسان. لذا فمسألة المعرفة لديه تحكمها عقول، تتدرج من المحسوس الى المعقول حتى تصل الى العقل الفعال. العقل الفعال مفارق عن العقول الاخرى المتصلة بالانفس والجسم. والمعرفة لا تتم الا بمساعدة عامل كوني خارجي هو العقل الفعال.

والمعرفة عند ابن سينا تقوم على الفطرة والمعرفة بالفكرة والمعرفة بالحدس ويرى ان ارقى درجات المعرفة هي المعرفة بالحدس.

والعقل هو السمة البارزة عند ابن رشد . الا ان ابن رشد يعطي للحس دوراً في إدراك الاجسام المركبة من المادة والصورة. اما العقل فانه يدرك الماهيات والمعقولات المجردة.

والغزالي يرى انه لا الحس ولا العقل يوصلنا الى معرفة حقيقية. وإنما المعرفة الحقيقية تأتي عن طريق القلب.

ويعلن ابو الحسن الاشعري صراحة: ان العقل ينبغي ان يوضع في مكانه الحق فمصدر المعرفة هو الوحي والنبوة.

ويؤكد ابن تيمية في كتابه "درء تعارض العقل والنقل" على ان المعرفة العقلية الصحيحة لا تقع خارج دائرة المعرفة التي يدعو اليها الاسلام.

اما الامام بديع الزمان سعيد النورسي. فإن المعرفة في رسائله تقوم على مافي الانسان من حواس وعقل وبصيرة وعلى ما جاء به الوحي من عند الله.

والمعرفة لا يعثر عليها في اعماق النفس البشرية ذاتياً وإنما تأتي اجتهاداً تمثله كلمة "اقرأ" والتي كانت اول كلمة يسمعها الرسول صلى الله عليه وسلم من وحي السماء وهذا الاجتهاد لا يقوم به الانسان مستقلاً وإنما يقوم به باسم الله فهو اجتهاد يستمد مبادئه ووسائله وغاياته من الله.

فالانسان لم يعثر عليه في الطبيعة، ولم يصدر عن العلة الاولى بطريق الفيض ولكن الله هو الذي خلقه وصاحب هذا الخلق جهد بشري ضئيل مجرد مصاحبة.

وان الباحث في موضوع المعرفة في فكر الامام بديع الزمان يجد ان بديع الزمان يؤكد على معرفة الله وانها ضرورة من ضرورات الحياة ولا سعادة بدونها.

ويقول في المذكرة العاشرة: "اعلم ان الوصول الى نور معرفة الحق سبحانه، والى مشاهدة تجلياته في مرايا الايات والشواهد والنظر اليه من مسامات البراهين والدلائل يقتضي الا تتجسس باصابع التنقيد على كل نور جرى عليك وورد الى قلبك وتظاهر الى عقلك والا تنقده بيد التردد فلا تمدن يدك لاخذ نور اضاء لك بل تجرد من اسباب الغفلة وتعرض لذلك النور وتوجه اليه فاني قد شاهدت ان شواهد معرفة الله وبراهينها ثلاثة اقسام:

- قسم منها كالماء يرى ويحس ولكن لا يمك بالاصابع ففي هذا القسم عليك بالتجرد عن الخيالات والانغماس فيه بكليتك.

القسم الثاني: كالهواء يحس ولكن لا يرى ولا يتخذ ولا يستمسك فتوجه لنفحات تلك الرحمة وتعرض لها وقابلها بوجهك وفمك وروحك.

القسم الثالث: فهو كالنور يرى ولكن لا يحس ولا يؤخذ ولا يستمسك فتعرض له وقابله ببصيرة قلبك ونظر روحك وتوجه اليه ببصرك." ٦..

ان المتأمل فيما ذكره بديع الزمان سعيد النورسي يجد ان الانسان لم يعثر على المعرفة ولكن الله هو الذي اعطاه اياها اعطاه بذرتها منذ البداية في البدهيات او العلوم الضرورية وصاحب نمو هذه البذرة اجتهاد بشري مشروط بالاستمداد من الله. والعلماء هم الذين يتدبرون القرآن والسنة ومن ثم يعرفون الله المعرفة الحققة. هم يعرفونه باثار صنعته، ويدركونه باثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمتة برؤية حقيقة ابداعه. ومن ثم يخشونه حقاً بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر. وهذا هو الطريق الى العلم الحقيقي والمعرفة الصادقة.

وان اعمال ادوات المعرفة التي خلقها الله واودعها في الانسان يجب ان تدور في فلك الشرع. والشرع هو المصدر الاساسي والمهيمن للمعرفة . فكل ما جاء في القرآن الكريم من أوامر ونواه غير قابلة للحذف والاضافة او التجاهل والتحايل او المماثلة والتأجيل والتسويف.

وتقوم المعرفة في فكر بديع الزمان لا على اساس نظرية تحتاج الى دراسة وتأمل وانما على اساس التعادل بين الكم والكيف، وبين المادة والروح، وبين الغاية والسبب، وبين الدنيا والاخرة فلا إفراط ولا تفريط طبقاً لقوله تعالى في سورة الانعام: وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه.

لقد دعا بديع الزمان الى الربط بين الحواس المرهفة وبين العقل الباحث المنظم او الوجدان النقي.

والامام بديع الزمان سعيد النورسي لا يقف عند حد معرفة الله باعتبارها غاية الغايات كما وقف غيره من فلاسفة ومتكلمين ولكن يعول على ما يترتب على معرفة الله من نتائج في حياة الانسان والانسانية.

"ان كل من عرف الله تعالى حق المعرفة وملاً قلبه من نور محبته سيكون اهلاً لسعادة لا تنتهي ولنعمة لا تنضب ولانوار واسرار لا تنفذ وسينالها إما فعلاً ووقعاً او استعداداً وقابلية بينما الذي لا يعرف خالقه حق المعرفة ولا يكن له ما يليق من حب وود يصاب بشقاء مادي ومعنوي دائمين ويظل يعاني من الالام والاوهام ما لا يحصر". ٧.

ويقول: "واعلم ان اعلى مرتبة للانسانية وافضل مقام للبشرية هو معرفة الله التي في ذلك الايمان واعلم ان ازهى سعادة للانسان والجن واحلى نعمة هو محبة الله النابعة من تلك المعرفة واعلم ان اصفى سرور لروح الانسان وانقى بهجة لقلبه هو اللذة الروحية المترشحة من تلك المحبة". ٨.

وهذا يدل على ان المستجيبين للمنهج الالهي عبر الاجيال والعصور ومن عكفوا كذلك على وحي الله بكل الايمان واليقين يحظون بعظيم النتائج وباهر الأثار. والايمان بالله لا يكون يقيناً الا اذا اسس وبنى على معرفة بالمعبود والمعرفة هي من فعل العبد المنسوبة اليه وبها يصير محموداً عند ربه.

ولا شك ان الاستجابة لدين الله تبارك وتعالى تضفي على اصحابها رباطاً وحكمة، واستقراراً، ويقيناً وثباتاً وتوفيقاً وصواباً ورشداً بحيث يجدون لهذا جميعاً ابر الاثار واوفى النتائج في سلوكهم واخلاقهم وانماط حياتهم.

لقد حظى اصحاب معرفة الله عبر الاجيال والعصور بعظيم النتائج وباهر الاثار. لقد اثابهم الله في الدنيا والآخرة.

وليس هناك شئ هو ابر بالانسان في حاضره وفي مستقبله ولا اوفى بامر الامة في شئون دينها ودنياها من ايمانها بربها ومعرفتها به. اذ يقودها ذلك الى كل الحق، والخير، والصواب والرشد. الامر الذي يغمرهم به ربهم بالرضا والرضوان ويشملهم بالطمأنينة والسكينة، ويصب في وجدانهم من آيات الثبات ما يناوئون به العواصف، ويطاولون به الشم الراسيات، ويقودهم الى مثوبة الله وفتحه وتأيبده ورحمة منه، ومغفرة ورضوان.

ودور الايمان في حصول المعرفة عظيم.

وقد لا يخفى ان معرفة الله تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها وسعيها الى الله في إطار ما تحتوي الطاعة من منهج متكامل. الامر الذي يضع بصماته على خلق العارف ويطلع انعكاساته عليه فيكون له اعظم الاثار والنتائج.

ومن المعروف ان البناء النفسي لا يعرف إلا في رحاب الحق وان فضائل الذات لا توجد ولا ترقى إلا من خلال

يقول بديع الزمان: "ان اصول العروج الى عرش الكمالات وهو معرفة الله جل جلاله اربعة:

اولها: منهاج علماء الصوفية المؤسس على تزكية النفس والسلوك الاشراقي.

ثانيها: طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والامكان.

ثالثها : مسالك الفلاسفة.

هذه الثلاثة ليست مصنونة من الشبهات والاوهام.

رابعها: المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول فهو اقصر طريق واوضحه

الى الله واشمله لبني الانسان". ٩.

"ان رسائل النور ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء... بل هو مسلك مقتبس من اعجاز القرآن يخرج زلال معرفة

الله عن كل شئ فيستفيد السالك في رسائل النور في لحظة ما لا يستفيده سالكو سائر المسالك في سنة وذلك سر من اسرار

القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد". ١٠.

فإذا كان المفكرون الاسلاميون اغراهم العقل وما وصل اليه من تقدم في الفكر اليوناني فان بديع الزمان سعيد النورسي

جعل رائده الاعجاز القرآني والمنهجية المعرفية في فكره قادرة على التفاعل مع ظواهر بناء العقل المسلم وتشكيله.

وإذا كانت الحضارة الغربية بمذاهبها وفلسفاتها قد فصلت بين الدين والعقل وجعلت العقل وعلومه خارج مجال

العلوم الدينية. فإن بديع الزمان الذي قال بالمعراج القرآني جعل للعقل حضوره على نحو من التكامل والتوافق.

---

\* د.أ. أحمد عبدالميم السايح: استاذ بقسم العقيدة والفلسفة. بكلية أصول الدين جامعة الأزهر. ومعار حالياً للعمل

استاذاً بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة.. وله مؤلفات تزيد على خمسة وثلاثين كتاباً. طبعت في مصر

والسعودية وقطر وسوريا ولبنان. وعضو اتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية. وعضو الجمعية الفلسفية المصرية. وعضو

مؤسسة الحضارة بالمملكة الاردنية الهاشمية. وكتب بحوثاً ومقالات لأكثر من عشرين مجلة وصحيفة. وله برامج إذاعية

وتلفزيونية في دول الخليج. وشارك في عدة مؤتمرات عالمية.

١ الكلمات / ٣١٠ - ٣١١

٢ مرشد اهل القرآن / ٣٧

٣ نفس المصدر / ٥٤

٤ نفس المصدر / ٥٦

٥ المكتوبات / ٢٨٩

٦ اللمعات / ١٩٥ ١ ٩٦ وانظر كذلك المثنوي العربي النوري / ٢٨٠ - ٢٨١

٧ الكلمات / ٢٨٩

٨ المكتوبات / ٢٨٩

٩ محاكمات عقلية / ١٤٨ - ١٤٩

١٠ المثنوي العربي النوري / ٤٢٥